منهج الشّيخ الحاج مالك سي (ت 1340هـ- 1922م)

في نشر الدعوة الإسلامية وفعاليته في غرب إفريقيا

ذ. منصور صمب

باحث من جمهورية السنغال

بسم الله الرحمان الرحيم، الحمد لله وحده والصّلاة والسّلام على من لا نبيّ بعده.

أمّا بعد: فإنّ الدّعوة من أهم الرّكائز التي ارتكز عليها الدّين الإسلامي، وانتشرت بها رسالة محمّد صلى الله عليه وسلم؛

فهي الوسيلة لنقل هذا الدّين القيّم من فرد إلى فرد، ومن قوم إلى قوم، ومن شعب إلى شعب. وهي مسؤولية على عاتق كلّ مسلم، ويجب عليه أن يبذل جهده في تبليغ رسالة الإسلام بما يتناسب مع قدراته وظروفه. قال الله في كتابه العزيز:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]

وقد قال النّبي صلى الله عليه وسلم: «بلغوا عني ولو آية»[2].

فبالدّعوة عمّت رسالة محمّد صلى الله عليه وسلّم جميع آفاق الأرض، ومن تلك الآفاق التي وصلتها الدّعوة الإسلاميّة وغيّرت مسيرها وجعلتها بلادا إسلامية ممتلئة بنور الدّين الإسلامي: غرب إفريقيا، بإسهام دعاة مخلصين أفنوا حياتهم في خدمة

1- آل عمران: 104.

2- صحيح البخاري، باب ما ذكرعن بني إسرائيل.

دين الإسلام.

ومن هؤلاء الّذين وضعوا بصماتهم في هذه المهمّة الشّريفة وأينعت ثمارها، ولا تزال تقطف: الشّيخ الحاج مالك سي السّنغالي (1853م- 1922م).

ولهذا نريد أن نقدّم بين يديك أيّها القارئ الكريم هذا المقال المتواضع بعنوان: "منهج الشّيخ الحاج مالك سي في نشر الدعوة الإسلامية وفعّاليته في غرب إفريقيا".

وذلك من خلال المحاور الآتية:

أولا: التّعريف بالشّيخ الحاج مالك، وبيان تكوينه المعرفي العلمي والدّعوي

ثانيا: مبادئ الشّيخ الحاج مالك سي في نشر الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا

ثالثا: وسائل الشّيخ الحاج مالك في نشر الدّعوة الإسلاميّة

رابعا: فعالية المنهج الدعوي للشّيخ الحاج مالك سي، وآثاره في غرب إفريقيا

أولا: التّعريف بالشّيخ الحاج مالك، وبيان تكوينه المعرفي العلمي والدّعوي

ولد الشّيخ الحاج مالك سنة 1853م على الأرجح في قرية (غاي Gaya)، في مقاطعة (داغانا Dagana). ثم تربّى في كنف خاله ألفاهم يورو ويلي Alfahima yoro wele وهو شيخه الأوّل، وحفظ القرءان الكريم في القرية الأصلية لوالده (الصين)، كما أتقنه حفظا وتجويدا ورسما.

وبعد حفظه للقرآن الكريم تجوّل في مناطق السّنغال لطلب العلم، وما من بيت عُرِفَ بالعلم إلا دقّ بابه، وكان خاله ألفاهم يورو ويلي أوّل من قدّم له الدّرس الأوّل من مختصر الأخضري، ثم لقّنه الورد التّجاني، وأعطاه الإجازة كما أوصاه به الشّيخ عمر الفوتي تال.

وأخذ الشّيخ الحاج مالك العلم عن مجموعة من الشّيوخ، منهم:

الشّيخ مغي حواء جي، والشّيخ مور جوب، والشّيخ كل سي، والشّيخ إبراهيم، الشّيخ مسلا ماني، وغيرهم الكثير من الشّيوخ.

بعد هذه المرحلة، استقرّ الشّيخ رضي الله عنه في اندر، فبدأ النّاس يكتشفون غزارة علمه ونبوغه فيه، فاجتمعوا حوله لينهلوا من مناهله الصّافية، ولكن الشّيخ تنقّل من اندر بعد ذلك إلى قرية غامبوجله .

ولم يكتف الشّيخ بهذا القدر من العلم بل خرج إلى شنقيط حيث يعرف بالعلم والمعرفة، وتتلمّذ على الشّيخ: محمد عالي بن محضن بابه، حتى أجازه بإجازات متنوّعة، ورجع الشّيخ إلى وطنه الحبيب السّنغال .

وهكذا قضى الشّيخ عنفوان شبابه في طلب العلم والاقتفاء بآثار الصّالحين، بالهمة والحزم حتى جمع ما جمع من العلوم، وأقبل عليه النّاس لينهلوا من فيضه الصّافي.

وبعد هذه المدّة أنشأ الشّيخ جامعات في جميع الأماكن الّتي مرّ بها، منها: مدينة اندر Ndar، وانجاردي Ndiardé، وتواوون.

وبعد هذا المشوار والمشاريع، أدركت الحكومة الاستعماريّة مدى تهديده لمخططاتهم، فخافوا أن يصيبهم منه ما أصابهم من الشّيخ عمر الفوتي... فأخذوا يضايقونه أشدّ مضايقة، فعانى منهم أشدّ المعاناة، واستدعوه للتّحقيق مرارا... فأرشده بعض الوجهاء إلى أن يغادر انجارندي Ndiardé إلى مكان قريب من أنظار الحكومة الاستعماريّة، لئلا يظنوا به سوءا، ويزعمون أنّه يريد نصب الحرب ضدّهم، فقدّر الله تعالى أن ينتقل الشّيخ إلى مدينة تواوون سنة 1897م[1] وكانن

1- استوطن السيد الحاج مالك تواوون سنة 1897م، وقيل: سنة 1902م. وإذا كان استيطانه تواوون سنة 1897م، فإنه لم يمكث في "ندر" إلاّ سنتين، ولكن الراجح أن ذلك في سنة 1902م، ثم اتخذها مقرا ومسكنا بصفتها محلا يناسب مركزه ووظائفه الدينية لكونها في الوسط بين المدينتين "ندر"، و"دكار" قلب البلاد، وربما كان يغادرها تارة إلى دكار وأخرى إلى "ندر" لتعهد المسلمين وتفقد أحوالهم الاجتماعية والإسلامية. انظر: تحرير الأقوال في تاريخ السنغال، ص 429.

آنذاك عاصمة كاجور، فمكث فيها ينشر الدّعوة الإسلاميّة حتى انتقلت روحه الكريمة إلى باريها يوم الثّلاثاء، ثاني شهر ذي القعدة سنة 1340هـ، الموافق 27 يونيو 1922م، ودفن في المكان الذي كان يعلّم النّاس فيه ويدعوهم إلى الدين الإسلامي[1].

ثانيا: مبادئ الشّيخ الحاج مالك سي في نشر الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا

للشيخ الحاج مالك، رضي الله عنه، مبادئ جليّة وواضحة في التبليغ والدعوة إلى الله تعالى، وهي مبادئ قائمة على التّوازن بين الالتزام بالنّصوص الشّرعيّة، وبين استيعاب ظروف النّاس ومراعاة مقاصد الشّريعة.

ويمكن عرض هذه المبادئ في ثلاث نقاط أساسية:

1 - التمسك بالكتاب والسنة

عاش الشّيخ الحاج مالك في فترة دُسَّ في دين الإسلام ما لا يعلمه إلاّ الله من الدّعاوى الباطلة من قبل بعض المنتسبين إلى الإسلام بالذّات، كادعاء سقوط التّكليف عنهم، وتعمد ارتكاب المحرمات، إلى غير ذلك من الأمور الدالة على الجهل وحبّ الدّنيا.

على عكس ذلك كان الشّيخ الحاج مالك، رحمه الله، متمسكا بالكتاب والسنة، موقنا بأن الإيمان ليس بالتّمني ولا بالتّحلّي ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال، وأنه لا يكون الدّين بالابتداع بل بالاتّباع، قال رحمه الله:

وَواجب طاعــة الهــادي محبّته ... كذا اتبــاع الّذي يـأتي من الأمم
لها علامات قالوا إن أعظمها اس ... تعمــال سنته من جملــة الإمم
وَلَـيْسَ نفْع عَلَى حُبٍّ بِلَا عَمَــلِ ... وَتَــابِعَــنْ سُنَّةَ الْمُخْتَــارِ تَغْتَنِمِ

1- انظر: مجمع الكنوز العلمية والمعادن العرفانيّة من ديوان الشيخ الحاج مالك سه، المجلد الأول، الصفحة 35 وما بعدها، بتصرف.

إلى أن قال:

إنّ القران هو الميزان تعرف من ... ه ما حويت من الأشواق والسدم[1]

ونجد الشّيخ في موضع آخر يصرّح تماما بموقفه من بعض ما يتصل بالانحرافات المذكورة، وذلك بقوله:

وكم باطن يوم القيـــامة باطل ... إذا لـم يـوافق ما أتـــاه حبيب[2]

ولهذا نجد الشّيخ مالك يصحح بعض المفاهيم المتصلة بالتصوف والتي قد يعتريها اللبس، وذلك بقوله: «الفتح في الحقيقة انشراح الصّدر للإسلام، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾[3] وعلامة ذلك التّبتّل إلى الله بالكليّة ونشاطة الأعضاء في العبادة»[4].

وليس هذا خطابا يوجّهه الشيخ إلى عموم النّاس فقط، ولكنه ألزم نفسه به أوّلا، فعلى كلّ داع قبل أن يشرع في مهمة التبليغ أن يبدأ بإصلاح نفسه، وأن يعمل بكل ما يأمر به النّاس، وفي هذا المعنى ذكر صاحب روح البيان ما نصّه: «فعلى من ابتلي بالمشيخة النظر في أحوال نفسه، فإن علم من نفسه الاتصاف بالعلم والعمل.... دعا من أحبّه من المسلمين، ونصح له، وإن لم يكن عالما ولا عاملا وجب عليه تحصيل العلم والعمل وترك المشيخة، ليسلم من وبالها يوم القيامة، فإنّ الجاهل والفاسق بعيدان من الله تعالى، وكيف يقربان غيرهما»[5].

1- انظر: خلاص الذهب في سيرة خير العرب، المجلد الثاني، من ديوان الشيخ الحاج مالك سه، ص 189 و 190.

2- انظر قصيدته: جلاء المتعلمين وحثّ العلماء العاملين، من ديوان الشيخ الحاج مالك سي، 7 ص 27.

3- سورة الزمر، الآية 22.

4- انظر: كتاب كفاية الراغبين، من ديوان الشيخ الحاج مالك سي، المجلد 5.

5- المصدر نفسه، ص 48.

وقال الشيخ الحاج مالك مؤكدا ذلك:

فيـــا عـــالما علمـــا ولم تك عـــاملا ألم يأن أن تخشى العليـم قلـوب

إلى أن قال :

أراك سراجـا يحرق الدّهرَ نفسه منيـــرا لغيـــر إنّ ذاك مخيـــب
أفي كلّ يـــوم تأمر النّـــاس ناسيـــا لنفسك ذا عـــار عليك يعيـب
وإن عَمَلًا أنكحـــت عِلْمًـــا تناسَلَا بِمُلْكٍ مدام لـــيس فيـــه حُرُوبُ
وإلافـــإنّ النّخـــل ليـس بنـــافع إذا لـــم يكن فيهـــا الثّمـــار تطيب[1]

وأكثر من هذا فالشيخ الحاج مالك يرى أنّه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وهو الرّجوع إلى الكتاب والسنّة، وكان يطبّق ذلك في حياته اليوميّة.

ولله درّ القائل له :

رُضْتَ النُّفُـــوسَ لديـــن الله تربية إبليس مـــا ابتسمت منه المكايد
أثبـتّ أركـــانه بالله فاعتدلـــت وكـــل ثغرلـــه بالجدّ مســـدول
عودّت في النّفس عادات عرفت بها صدق وزهد وإنصـــاف وتجويـــد
زيّنّت سنـــة من لولاه مـــا برزت شمس النّهـــار ولا بدر ولا عـــود[2]

2 - الحفاظ على روح الجماعة والوطنيّة، والعمل على بناء مجتمع متماسك

من مبادئ الشّيخ الحاج مالك، رحمه الله، أن يكون المسلمون متحدين لا

1- انظر: زجر القلوب عن حبّ دار الخلود، من ديوان الشيخ الحاج مالك سي، المجلد السابع، ص 16 - 17.

2- انظر: اليواقيت العرفانيّة من الفيوضات الربانيّة، ص 9.

متفرقين، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[1]. وكان يرى -رحمه الله- أن في الفرقة ذهاب ريح المسلمين كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

وقد أكد ذلك في إحدى قصائده بقوله:

وقال ربّ الورى الرّحمان ﴿واعتصموا﴾ سبحانه جلّ ربًّا خالقا حانا
إنّ التّفرّق في ذا الدّين مفسدة علا بذا لكم عن كلّ أديان[3]

لهذا كان كثيرا ما يقول: «إيّاكم والتّخالف، والتّخالف ما هلك من قبلكم إلاّ به، وبه يعضّنا الدّهر بنابه»[4].

وكان –رحمه الله- يراعي هذا المبدأ ويحفظه حتى في ترجيح المسائل الاختلافيّة، يقول في مسألة السّدل والقبض: «وإنّي -والحمد لله- لمّا علمت أن عدم الرّفع عند غير تكبير الإحرام، وإرسال اليدين روايتان عن ابن القاسم عن الإمام مالك -رضي الله عنه- وقد صحبهما عمل أكثر أصحابنا والشّهرة، تمسكت بهما تأدّبا مع أسلاف مذهبنا، ولئلّا يقع النّزاع بين عوام المسلمين...»[5]

ولم يجعل فهمه للدّين في إطار ضيق، بل كان يرى أن من مقاصد الشريعة الإسلامية: بناء مجتمع متماسك، وذلك بالقيم الدّينيّة والأخلاقيّة، وضمان التكافؤ بين الأفراد وتلبية حاجاتهم، وحلّ مشكلاتهم، مع بناء مجتمع متوازن،

1- سورة آل عمران، الآية 103.
2- سورة الأنفال، الأية 46.
3- انظر: الرسالة اللطيفية للشيخ الحاج مالك سي من الديوان، المجلد 3، ص 216.
4- انظر خطبة الشيخ الحاج مالك من الديوان، ص 168.
5- كفاية الراغبين، المجلد 5، ص 118.

قائم على قيم المواطنة الإيجابيّة بالتّعاون والتّفاهم، وتشجيع المبادرات الخيريّة والأعمال التطوعيّة، وترغيبهم في العمل الصالح، والمشاورة والتّواصل لحلّ المشكلات، وكذلك توفير بيئة تتيح للجميع العيش فيها بكرامة. كما كان يرى - رحمه الله - أن صلاح المجتمع يبدأ من إصلاحه أفراده.

لهذا نجد الشيخ الحاج مالك يدعو إلى التّربية الرّوحية، وتطهير النفس بممارسة الذّكر والمحافظة على الكليات الخمس، والعلم والتّعلم، والاجتهاد في العبادة، والزّهد في الدّنيا، كما كان يدعو إلى التّعايش السّلمي، ومراعاة حقوق النّاس والاعتماد على النّفس، والأكل من عرق الجبين، وتقوية العلاقة بين المريدين.

وهذا المبدأ واضح جدا في كتابات الشيخ –رحمه الله- ومن تجلياته قوله:

والنّفس كالطّفل إذا لم تُشْغَلِ ... بالخير تَشْغَلْ صاحبا بالخَلَلِ [1]

وقوله أيضا:

ونفسك عيّب ثم بطنك عادها ... ومولاك فاشكر إنّه لوهوب
وأخراك فاطلب ثم دنياك فاتركن ... معدّا لما للعالمين يُذِيب
أعد واندمن ردّ المظالمَ أهلَهما ... أذِب وأذيقن وابكِ كنت تتوب
ونفسك شارط ثم راقبْ ... وحاسبْ وعاقب وجاهد عاتبنَّ تنوب [2]

وهذه العبارات القيّمة الثّرية أنزلها الشيخ الحاج مالك سي في عالم الوجود، وطبّقها في مجتمعه، وأسس بيتا علميّا ومقرا مناسبا وأسرة عظيمة، لدعوته ووفّر جميع ما يحتاجه الداعيّة ممّا يمكن أن يكون عقبة أمامه عند عدمه: من الأسرة، والاقتصاد، والاجتماع، والعلم، ممّا يأثّر في حياة الفرد بصفة عامّة، وحياة

1- انظر الأبيات التي كتبها الشيخ ناصحا تلاميذه، من ديوانه، المجلد 7، ص 82.

2- زجر القلوب، من ديوان الشيخ الحاج مالك، المجلد 7، ص 19.

الدّاعيّة بصفة خاصّة.

3 - حسن السّياسة والحكمة في التعامل مع المحتلين

إنّ الشّيخ رضي الله عنه فهم -بداية- أنّ الإنسان مهما أراد تحقيق شيء، فلا بدّ له أن ينتظر توفّر الوسائل المعينة التي تَضْمَنُ له النّجاحَ فيه.

ولهذا لمّا عاش الشيخ في زمن كثرت فيه العراقيل والعقبات التي يمكن أن تحول بينه وبين أداء مهمّته الدعوية، تبنّى مبدأ مناسبا لذلك، وسَلَكَ طريقا مخالفا لكثير من الدّعاة السّنغاليين، فإنّ كثيرا منهم مثل الشّيخ عمر الفوتي تال، والشّيخ سليمان بال، حملوا السّيف في وجوه القوات الاستعماريّة المحتلة، ومنهم من لم يعمدوا إلى ذلك ولكن أظهروا قوة وصمودا أمامهم، ولكن الشّيخ الحاج مالك سي كانت له رؤية مختلفة، وهي التّكيّف مع ظروفه حتى يتحقّق هدفه. فهو "يرى أن عصره يحتاج إلى خطّة جيدة، وذلك بتعليم النّاس الدّين الصّحيح، وحملهم على الإيمان به حق الإيمان، والالتزام بالوحدة الإسلاميّة، ونبذ الحزبيّة في أذهانهم، قبل حمل السّلاح والخوض في المعارك، حيث إن المقاومين القدامى تمكّن منهم المستعمر بسبب تفرّق صفوفهم"[1].

وعلم الشيخ أن الدولة الاستعماريّة ليست إلاّ "مؤسسة تهتمّ باحتلال الأراضي، والسّيطرة السّياسيّة، والاستلاب الثّقافي" كما يقول إب دير اتيام[2]. ولهذا حاول الشّيخ –رحمه الله- أن يجد حلولا لهذه المشاكل وأن يفسد خطة المحتل بسياسة وحكمة.

فقد كان هدف الشيخ –رحمه الله- أن يخرج من السنغاليين من هم أكثر يقظة من المستعمرين، وأن يعمل جاهدا بالعلم والثقافة وبعد النظر وفق مقاصد الشريعة مع الحفاظ على الأسس الحضارية والعادات المرضية، من أجل تحصين الناس كافة

1- كفاية الراغبين، ص 68.

2- المرجع نفسه، ص 65.

من أهداف المحتلين التي من أهمها: الاستلاب الثّقافي..

ولهذا تحمّل الشّيخ الحاج مالك ارتكاب أخف الضررين وفق القواعد الفقهية: "إذا اجتمع الضّرران روعي أعظمهما ضررا بارتكاب أخّفهما"، فمن إنصافه وحكمته رحمه الله استفادته من بعض الإيجابيات التي اتسم بها وجود الاستعمار، كحفظ الأمن وحسن التنظيم، يدل لذلك قوله: «وكنّا من قبل دخولهم في هذه البلاد لا يخرج أحد إلى محلّ ما إلا بالسلاح، وسواء في أرض السّودان والبيضان، ولو لم يفعلوا لنا شيئا غير منع سفك دماء المسلمين بعضهم بعضا لكان كافيا من الإحسان»[1]. وذلك لما رأى ما جرى من اختلاف المسلمين في ما بينهم، قبل أن يستقرّ المستعمر في السنغال، وتظهر مفاسد كثيرة بسببه، مع عدم العدّة الكافية لمواجهتهم، ولكن أن نكون كتلة واحدة في ظلّ الاستعمار مؤقتاً، خير من أن نتفرّق متحررين، يضرب بعضنا بعضا.

ثالثا: وسائل الشّيخ الحاج مالك في نشر الدّعوة الإسلاميّة

لما اطلع الشّيخ على مجتمعه، وتأمّل أحواله، وكثرة التّحديات التي تواجهه، اختار وسيلة ملائمة مناسبة لتحقيق هدفه؛ وهو نشر الدّعوة الإسلاميّة في غرب إفريقيا، ومنع المستعمر من تحقيق أهدافه.

وقد رأى الشّيخ الحاج مالك أن الوسيلة المناسبة لهذه المهمة هي نشر العلم ومحو الجهل.

فللعلم أثر مهم في توعية المجتمع ومعالجة مختلف مشكلاته. فدعا –رحمه الله- النّاس إلى العلم النافع، وذلك بقوله:

ألا يا بني هذا الزّمـان دعوتكم ... لإحيـاء ديـن بالعلـوم أجيبوا
نصحتكـم لله لا غيرُ مطلبـي ... فعـون إله العالميـن حسيبوا[2]

1- انظر رسالة في السياسة الشرعية، في الديوان، المجلد 7، ص 214.

2- انظر: قصيدة الشيخ الحاج مالك سي: جلاء المتعلمين وحثّ العلماء العاملين، وتعليم رعونات أنفس المتصوفين، من ديوانه، المجلد 7، ص 26.

فشمّر نحو العلم مستعملا طرقا شتّى لإيصاله إلى النّاس.

وسنذكر الطّرق والسّبل التي سلكها –رحمه الله- في ما يأتي:

1 - مباشرته تعليم النّاس وتكوينهم تكوينا علميّا ومعرفيّا

كان الشّيخ، رضي الله عنه، يستغلّ جلّ أوقاته في تعليم النّاس، "وكان إذا أصبح الصّبح بعد تمام أوراده ونوافله... يعلّم أتباعه من السّاعة الثّامنة إلى الزّوال، ويتهيأ لأداء فريضة الظّهر في زاويته... وكان إذا أدى صلاة الفريضة يقصد إلى نوافله الّتي كان يصليها إثر كل فريضة. وإذا فرغ منها يحف به جميع الطّلبة ويدرسون كتب التّفسير والحديث وكتب القوم[1] مستمرا على هذه الحالة... إلى أن يحين وقت صلاة العصر..."[2]

بل كان –رحمه الله- يعتبر التّعليم حرفة له، "ولقد أجاب يوما رجلا يشفق عليه لضعفه وقلّة قوته، قال له: إنّ النّاس يطلبون منك أن تعيّن واحدا من التّلاميذ ينوب عنك في التّدريس. وكان جوابه: إذا وقفت بين يدي الله ورسوله لا أجد حجّة تكون لي بين يديه، والحجة حجتان؛ حجة لك، وحجة عليك، وابن الأبيّة لا بدّ له من الحرفة، وأنا اتخذت التّعليم حرفتي".

كما يرى الشّيخ الحاج مالك أن الوظيفة الأولى للداعية إلى الله هي أن يعلّم النّاس دينهم ويخرجهم من الجهل.

وفي ذلك يقول:

على كلّ متبوع دلالة تابع ... لما هو أجدى لالجلب عطاء
وتعليمهم فرض ولو بإجارة ... وإلاّ عليك الإثم يوم لقاء[3]

1- يعني كتب التصوف.

2- انظر: أوضح المسالك، للشيخ الحاج عبد العزيز سي الدباغ، الجزء الثاني، ص 201.

3- انظر: نصيحة أبناء الزمان، للشيخ الحاج مالك سي، ج 7، ص 12 من ديوانه.

ولهذا أقام مدرسته في تواوون، كما أقامها في اندر، وانجاندي، وغيرها.

2 - التّأليف وكتابة الرّسائل والوصايا والخطب

من الطّرق التي اختارها الشّيخ لنشر العلم في غرب إفريقيا: التّأليف، وتوجيه النّصائح إلى النّاس بكتابة الرّسائل والخطب.

وكان معه مجموعة من العلماء الجهابذة وتلاميذه الّذين يعينونه في هذه المهمّة: وكان يملي عليهم -إذا احتاج إلى ذلك- ويرجعون إلى المراجع بتوجيهاته، وينسخون الكتب، ويجوّفون المداد.

وكان يشتغل بالتّأليف والمطالعة بعد صلاة العشاء[1] ، لذا ترك ثروة علميّة من التّأليفات طبع منها كثير في سبع مجلدات[2] ، وما زال البعض مخطوطا، وقد طُبِعَ ديوانه لأوّل مرّة سنة 1916م في مصر، بجهده رضي الله عنه.[3]

فكان –رحمه الله- يعمد إلى التّأليف كوسيلة لنشر الدّعوة، بتوجيه النّاس، وإرشادهم، فنجد كتاباته "تضمّ الكثير من الفنون العلميّة والثّقافة الإسلاميّة، إلى جانب التّربيّة الرّوحيّة الممنهجة حيث تناول بدراسة جوانب كثيرة مهمّة في حياة الإنسان، ومنها: الجانب الرّوحي، وتمثله دراساته العميقة حول الإسلام، والتّصوف الإسلامي، والجانب الفكري الإصلاحي، وتمثله دراساته للقضايا الاجتماعيّة في ضوء المعيار الشّرعي والجانب العلمي المعرفي، ويتمثل في منظوماته العلميّة التي سهّلت للمتعلمين طريقة حفظ العلوم في مختلف المجالات وضبط قواعدها الأساسيّة وفهم مقاصدها الأوليّة وتشرب مسائلها"[4] . لهذا نجد في تأليفاته كثيرا

1- انظر: أوضح المسالك، للشيخ الحاج عبد العزيز سي، ج 2، ص 201.

2- طبع سنة 2021م، الطباعة والإخراج الفني: دار أبي رقراق للطباعة والنشر- الرباط.
بعمل اللجنة العلمية الثقافية التابعة للحضرة المالكية التجانية، تواوون- السنغال، بإشراف الخليفة العام أبي بكر سي المنصور.

3- انظر: مجمع الكنوز العلمية والمعادن العرفانية، من ديوان العلامة الحاج مالك سي، ص 29.

4- انظر: ديوان الشيخ الحاج مالك سي، المجلد 7، ص 262، بقلم الحاج مالك صو.

من الرّسائل والوصايا، "وكان كثيرا ما يكتب الرّسائل والنّصائح إلى كافّة الإخوان نصيحة لهم وتذكرة، ينهاهم فيها عن معاداة المسلمين... وكان كثيرا ما يقول: أختار أن أكون نفعا لعباد الله، ولا أكون كلّا عليهم"[1] . وكان الكثير من كتبه يهدف إلى إرشاد النّاس، وتصحيح بعض الأخطاء الفاحشة في زمنه، المتعلقة بضبط المفاهيم وأصول العقائد، والتّطبيقات، فيعالجها ويبين الخطأ فيها ويصحّحها، وفي ذلك يقول:

ألا نبّهوا الأتباع كيلا تؤاخذوا بما أحدثوا في الدّين دون سواء [2]

كما نجد كثيرا من كتاباته تهدف إلى زجر القلوب وتزكية النّفوس، والأمر بتقوى الله ومخالفة الهوى، ويعتني بكل ما يؤرّق الإنسان، لهذا نجد في ثنايا كتبه نصائح نافعة، وسياسة شرعيّة تمهّد للإنسان أن يعيش في الدّنيا مرتاح البال.

3 - الاجتماعات الدّينيّة والمناسبات الاجتماعيّة

ومن الطرق التي سلكها الشّيخ الحاج مالك، رضي الله عنه: تنظيم المناسبات واللقاءات الدّينية والاجتماعيّة، وكان يعتبرها فرصة للدّعاة لنشر الدّعوة الإسلاميّة، لإيصال الرّسالة الإسلاميّة بفعاليّة، ولتعليم النّاس، وهذا من الأسباب التي جعلت الشّيخ يدعو النّاس إلى تواوون، لتعظيم مولد النّبيّ صلى الله عليه وسلم، سنويّا وجعله يوما لنشر العلم، وفي ذلك يقول:

ألا عظموا ليل الولادة حسبة إذا لم يكن نحو الحرام عدول

حيث اعتبر هذه المناسبة فرصة سانحة يجتمع فيها أصحابه وسفراؤه كلّ سنة،

1- أوضح المسالك، للشيخ الحاج عبد العزيز سي، ج 2، ص 207.

2- انظر: قصيدته: لا تركنن حبي، في الديوان، المجلد 7، ص 12، من ديوانه.

لإحياء هذه اللّيلة النّبويّة المباركة، مغتنمين الفرصة المتاحة للمذاكرة والمباحثة فيما بينهم كما كانوا من قبل في ساحات الزّوايا وباحات البساتين، ولعرض ما أشكل عليهم من المسائل والقضايا على الشّيخ، فيوضّح لهم المشكلات ويحلّ لهم المعقدات العويصات، ثم يعودون إلى العام القادم [1].

وقد أنشأ البساتين: ليجتمع المريدون في مكان واحد، ويزودهم بإرشاداته الرّبانيّة والتّوجيهات الإلاهيّة، وليتعارفوا فيما بينهم لترسيخ روح الأخوة الإسلاميّة.

وصرّح الشيخ، رضي الله عنه، بهذا جليّا معبّرا عن هدفه من إنشاء البساتين، فقال: "فلتعلموا يقينا أنّي لم أتّخذ هذا البستان للإنفاق على عيالي، كلاّ وحاشا، وإنّما اتخذته لأمور ثلاثة، وهي:

أوّلا: أنّ الشّيخ ومريده لا بدّ لهم من التلاقي والترائي في محلّ، فإن كنت في دكار وجاء وقت الخريف، لا يمكنكم الوصول إلي، فأحببت أن نعيّن وقتا نتلاقى فيه.

ثانيا: يوجد في كلّ جماعة من جاء من محلّ خال عن إخوان له في الطّريقة، لكن إذا أتى إلى هناك علم أنّه كثير الإخوان.

ثالثا: التّعارف والتّآلف فيما بينكم، لئلا يحتاج أحد إلى زاد في أسفاره، لأنّ كلّ قرية دخلها علم أنّ له فيها أخا ينزله منزلة الأخ الشّقيق أو أعلى منه" [2]. وهذه الأسباب كلها تخدم الدّعوة الإسلاميّة.

كما كان –رحمه الله- ينظّم جلسات وحلقات دعويّة في الزّوايا، وعند الزّيارات الدّينيّة، وغيرهما.

لأنّ هذه الاجتماعات تسهم في تحقيق أهداف الدّعوة الإسلاميّة من خلال نشر العلم وغرس الأخلاق الدّينيّة، وتقوية العلاقات الاجتماعيّة، وتيسير إيصال الدّعوة

1- انظر: مجلة السراج، العدد الأول، ص 53، بقلم: باب عبد سي شيخ، بتصرف.

2- مجلة السّراج، العدد الأول.

إلى جماعات كثيرة، وتوفير تعليم النّاس وتوجيههم، والمبادلات المفيدة من الأسئلة والأجوبة، كما يمكن أن تؤثر هذه اللقاءات في غير المسلمين، وتعطيهم صورة إيجابيّة عن ديننا الإسلامي الحنيف، وتساعد في مناقشة القضايا الإسلاميّة المعاصرة في المنظور الإسلامي، ممّا يعزز قدرتهم على مواجهة التّحديات التي تواجه الإسلام والمسلمين في كل زمان، كما تشجّع الحاضرين على الالتزام بالطّاعات مما ينعكس إيجابيا على حياتهم الفرديّة والجماعيّة .

فلهذا أعطى الشّيخ هذه اللقاءات أهمية بالغة كوسيلة فعّالة لنشر دعوة الإسلام.

رابعا: فعالية المنهج الدعوي للشّيخ الحاج مالك سي، وآثاره في غرب إفريقيا

إن منهج الشّيخ الحاج مالك سي الذي تبنّاه لنشر الدّعوة الإسلاميّة أثرّ بشكل كبير في تشكيل المجتمع السّنغالي في جوانب مختلفة دينيا، وثقافيّا ، وسياسيّا، واجتماعيّا، وساهم في نشر قيم الإسلام السّمحة وتعزيز وحدة المجتمع، ونصب الدّين الإسلامي في غرب إفريقيا بأسس قوية متينة.

ولهذا قال عنه بول مارتي: "إنّ تأثير الحاج مالك يمتدّ في كل المناطق السّنغاليّة، من سان لويس حتى منطقة سالم، هذا الشّيخ هو الأكثر أهميّة في المنطقة، كما أنّه أكثر ثقافة وجذبا، وهو المرجع في كثير من المسائل الخلافيّة الدّينية والأخلاقيّة والثّقافيّة"[1]

ولا نكتفي بهذه العبارات من الشّاهد الحاضر، بل سنضع بين يديك أعمالا جبّارة تريك ما مدى فعّالية منهج الشّيخ رضي الله عنه.

1 - نجاحه في بناء المساجد، وإنشاء المدارس، وتأثيره العلمي:

فإنّ الشيخ الحاج مالك بنى جوامع في أماكن أَكْثَر خطورة، كحال مدينة تواوون قبل مجيئ الشّيخ رضي الله عنه، أو أماكن كانت مقرّا للمستعمر كمدينة اندر، وكلُّ

1- انظر: مجمع الكنوز العلمية والمعادن العرفانية، من ديوان الشيخ الحاج مالك سي، المجلد 1، ص 48.

هذه المدن بنى فيها الشّيخ جوامع وزوايا، يدعو النّاس فيها إلى الدّين الإسلامي، وكلّ هذا حصّله بمنهجه السّديد في زمن صعب، وبوجود المحتلّين.

- فبنى زاوية في العاصمة السّنغاليّة القديمة سين لوي، سنة 1892 م
- وزاوية في انجارندي، سنة 1895م.
- وزاوية في تواوون 1904م، وكذلك جامعا كبيرا في نفس المدينة سنة 1903م.
- وزاوية في عاصمة السنغال دكار، سنة 1905م.[1]

وكلّ هذه الأعمال العظيمة وليدة منهجه الزّكي الرّباني.

ومن ثمار هذا المنهج أن تخرّج من مراكزه العلمية عدد من العلماء المقتدى بهم المشهورين بالعلم والورع، الّذين كان لهم أثر كبير في نشر دعوة الإسلام، كشيخهم، فواصلوا هذه المهمة حياة الشّيخ وبعد وفاته، رحمه الله. فلهذا نجد في كثير من بقاع الأرض دعاة تخرّجوا من مدرسته، رضي الله عنه، وتبنّوا منهجه في نشر الدّعوة الإسلامية، ببناء المساجد، والتّعليم، والتّأليف، والاهتمام بالبساتين، وحسن السّياسة، والتّمسك بالكتاب والسّنة، والحفاظ على لزوم الجماعة، كما كان يأمرهم الشّيخ رضي الله عنه.

فمن بين هؤلاء من كانوا مبعوثين في مناطق بالسّنغال، وفي خارجه، لنشر العلم النافع والتواصل العلمي البناء داخل مختلف الأقطار، فأرسل إلى:

- غايا، الشّيخ علي جوب ميمونة.
- اندر، الشّيخ إبراهيم جوب.
- كاولاك، الحاج عبد كن.

1- مجلة السراج، العدد: 1، بقلم بابا عبد سي شيخ، ص 49، بتصرّف.

- بال، الحاج روحان انغوم.
- فاس، توري الشّيخ محمد الهادي توري.
- دكار، الشّيخ سعيد النّور تال.
- بدور، الحاج بابا انجوغو.
- ابمالخي، الحاج داود جه.
- بامبي، الحاج علي تال.
- ساحل عاج، الحاج أحمد بوي كي
- كبون، الحاج ندر ابمي.
- إفريقيا الوسطى، الحاج باب جينغ
- مالي، الحاج عبد انجاي [1].

وهؤلاء الجهابذة من العلماء الرّبّانيّين لم يتخرّجوا إلا من مدرسة الشيخ الحاج مالك، وما شربوا إلاّ من منهله الصّافي، وذكرت الّذين جعلهم الشيخ كَمُمَثِّلٍ له في الأماكن التي ذكرتها، وهذا العدد ضئيل أمام الّذين لم أذكرهم وتخرّجوا من مدرسته وبتكوينه.

2 - تأثير منهجه الدعوي في مجال الاقتصاد

وليس تأثير دعوة الشّيخ الحاج مالك سي، رضي الله عنه، متعلقا بالدّين فقط، بل شارك في مجال الاقتصاد وذلك بتعزيز قيم العمل والإنتاج، وتنظيم المجتمع وفق مبادئ التّعاون، مما جعل دعوته الإسلامية ذات تركيز على الاقتصاد، فنبه –

1- انظر مجلة السراج، العدد الأوّل، ص 52

رحمه الله- على أهميّة العمل، وربط القيم الدّينيّة به، مما جعل الإنتاج الاقتصادي جزءا من الالتزام الديني لدى أتباعه كواجب على كلّ فرد.

وكان –رحمه الله- يدير في حياته كثيرا من البساتين منها:

- انجاند Ndirnde ، كانت مساحته: أربع كيلومترات مربعة.
- انغامبوجل Ngamou cillé، وورثه من أمه، والقرية تبعد عن داغانا حوالي تسعة كيلومترات.
- جكساو Dieksaw ، وهو بعيد نوعا ما عن تواوون.
- جامّكن Diammeu gueune ، وهو قريب من تواوون [1]

فهذا أُنمُوذج واضح في التّأثير الواقعي للشيخ الحاج مالك سي في الاقتصاد، منطلقا من منهجه في نشر الدّعوة إلى الله.

وليس تأثيره الاقتصادي مقتصرا على الجانب الزّراعي فقط، بل متعلقا كذلك بكل ما يعزّ به المرء من الحرفة من التجارة وغيرها .

3 - التأثير الإيجابي لمنهجه الدعوي في الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة

إن فعّالية المنهج الّذي تبنّاه الشّيخ الحاج مالك سي مهّدت له جوا هادئا وعلاقة جيدة وتعايشا سلميّا مع أهل بلاده بصفة عامة، والشّيوخ السّنغاليين بصفة خاصة، وذلك بفضل منهجه وحسن سياسته، حتى شهد له الجميع بتفوّقه في العلم وتقواه، لوضوح مبادئه ورجحان عقله. فهؤلاء "علماء فوتا وقضاتها وقّعوا على وثيقة أقرّوا فيها بتفوّقه على أهل زمانه في العلوم..."[2] وهذا كله يرجع إلى سداد منهجه.

1- انظر المصدر نفسه، ص 51.

2- انظر: مجمع الكنوز، من ديوان الشيخ الحاج مالك سي، مجلد: 1، ص 48.

لقد كان للشّيخ الحاج ملك سي تأثير بالغ في سكان بلاد السّنغال، فهو حامل لواء الإسلام والطّريقة التّجانيّة فيها، وخصوصا في مدينة تواوون التي هي مقر دعوته، وفي دكار وما حولها من المدن التي بنى فيها زاوية في حياته، ومدينة "اندر" التي بدأ فيها أمر نشر الدّعوة الإسلاميّة، ومدينة بودور PODOR قرب مسقط رأسه، التي بعث فيها مريده الذي صاحبه يوما حينما دعاه المستعمر للتّحقيق، بابا جوغّو، ومدينة داغانا حيث توجد قرية مسقط رأسه، رضي الله عنه.

وليس تأثير دعوته في السّنغال فقط، بل جاوز هذا الحدّ إلى ساحل عاج، ووسط إفريقيا، ومالي، بل يوجد أتباعه في جميع أنحاء العالم، وهذا بفضل منهجه، ووضوح مبادئه ووسائله التي أدّت إلى هذا النّجاح الباهر، رضي الله عنه.

ولا يمكن أن نذكر تأثير منهج دعوته، بدون ذكر تَمَيُّز أصحابه بالعلم وتقيّدهم بالشّريعة. فإنّ أتباعه، رضي الله عنه، أصبحوا معروفين بالعلم والتّقوى، وما زالوا يُشار إليهم بالبنان في العمل بأحكام الشّريعة، والاعتناء الكبير بالعلم، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على نجاح منهج الشّيخ الحاج مالك، رضي الله عنه، في دعوته إلى الله.

ومن فعّالية منهجه أنّه نجح أمام المستعمر في إيجاد كلّ ما كان يسعى إليه من بناء المساجد وإنشاء الكتاتيب، والحصول على البساتين، ونجح رغم الإكراهات في نشر الثقافة الإسلاميّة، والقيم الدينية الّتي كان هدف المستعمر نزعها من جميع أقطار البلاد. وكلّ هذا النّجاح إنّما تحصّل بفضل الله، ثم بحنكة الشّيخ بالسّياسة ورجحان عقله وسداد منهجه، ولله درّ القائل في حقه:

جـــاهدتهم بمـدارات ملطفـــة ... أبدعت فيها ومـا أقصرت إتقانـا
عـــاملتهم بسياسات أصرت بها ... ملك السّلاطين خداما وأخدانـــا
تلك السّياسة حقا قد مُلِّكَتْ بها ... مالا تملكهـا الأسياف سلطانـــا[1]

1- انظر رسالة التخرج، لعبد امينغ.

ويقول الأستاذ شيخ تجان غي في مدحه:

ليس الجهـاد صوارخـا وجنودا وتحكمـــا في شغلهـــا ووعيـدا
ليس الجهـــاد بغـــارة أو غـزوة تودي مؤسر ملحـــــدا مطـردا

إلى أن قال:

ليس الجهـاد بـــواحد من هذه لو يكـــون عزيـــمة وصمـــودا
وثقـــافـة بهدايـــة وتواضعـــا في هيـــبـة وبصيـــرة توحيـــدا
وتقـــى وتثقيـــفا وتربيـــة على وفق الشّريـــعة تنقذ المنكـــودا
وبهذه قد كـــان مَوْدُ[1] مجاهدا ليعيـش حرا أو يموت شهيـدا[2]

ويقول الأستاذ محمد جوب عنه: «إنّ المعركة التي خاضها ضدّ الدجّالين المغضوب عليهم والضالّين، من أشدّ المعارك التي جرت فكريا وعقليّا وثقافيّا ودينيّا وعلميّا، ولولا دعوى القوم والغلواء، لسُلِمت له أوسمة النصر والقيادة والرّئاسة في معركة النّضال والكفاح والمقاومة النّاجحة بحكمة...»[3]

1- لقب للشيخ الحاج مالك سي.

2- انظر رسالة التخرج، لعبد امينغ، ص 72.

3- المصدر نفسه، ص 72.

الخاتمة :

بعد هذه الرّحلة العلميّة من حياة هذا الشيخ الجليل الّذي قدّم حياته خدمة للإسلام، يمكن تلخيص ما تقدم في ما يأتي:

• أن الشّيخ الحاج مالك، رضي الله عنه، شرع في مهمّة الدّعوة إلى الله، بعد ما أخذ من العلم ما يكفيه لذلك، رغم مسؤوليّة القيادة الدّينيّة، وكذا الزّمن الصّعب الذي عاش فيه.

• تبنّى الشّيخ الحاج مالك، رضي الله عنه، منهجا رصينا للوصول إلى هدفه بعد الاطلاع على إمكانياته ووَضْع النّاس وظروفهم.

• أنّ جميع ما دعا إليه الشيخ الحاج مالك من العلم والانفتاح الشرعي، وحسن السّياسة وغيرها قد جسّدها بنفسه: في الجانب الاقتصادي، والاجتماعي، والسّياسي، والثّقافي، والتّضامني والتّعاوني...

• أن الشّيخ لم يكتف بالقيام بهذه المهمّة هو وحده بل كوّن رجالا كثيرا، وبعثهم إلى مناطق مختلفة، ليواصلوا مهمّته فيها في بلاد السنغال وخارجها بنفس منهجه.

• أنّ منهجه الجيّد، رضي الله عنه، حقق له جميع النّتائج المرجوة منذ حياته إلى عصرنا الرّاهن.

• أن الشّيخ الحاج مالك جسّد التّعليمات الدّينيّة، ومقاصدها وأسسها في الحياة الواقعيّة، وجعلها منهجا لدعوته، ولهذا ما من مبدأ أو أسلوب أخذناه منه إلاّ نجده يوافق تماما مقاصد الشّريعة بكلياتها الخمس.

• أن الوسائل التي استعملها الشّيخ لنشر دعوته أثّرت في أتباعه، لذلك نجدهم يسلكون نفس الطّريقة، بالاهتمام بالحرفة -خصوصا البساتين- ويبنون المساجد ويعمرونها، ويعطون التّعليم أهميّة كبيرة، ويتخذون المناسبات الدّينية والاجتماعيّة وسيلة لنشر الدّعوة.

هذا ولايزال ما ذكرناه عنده من الجوانب التّربويّة والاجتماعية والاقتصادية، يحتاج إلى مزيد من الدراسة المعمقة والمفصلة، ولكن كما يقال: مالا يدرك كلّه لا يترك جلّه .

قائمة المصادر والمراجع

1) القرءان الكريم برواية حفص عن عاصم.

2) صحيح البخاري، المحقق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة– دمشق، الطبعة الخامسة، 1414هـ/1993م.

3) أوضح المسالك في التّعريف بحياة ومناقب الشيخ الحاج مالك، للشيخ الحاج عبد العزيز سي.

4) خلاص الذهب في سيرة خير العرب، للشيخ الحاج مالك سي.

5) زجر القلوب، للشيخ الحاج مالك سي.

6) كفاية الرّاغبين فيما يهدي إلى حضرة العالمين، للشيخ الحاج مالك سي.

7) مجلد السّراج، العدد الأول.

8) قصيدة: لا تركنن، للشيخ الحاج مالك سي،

9) قصيدة: جلاء المتعلمين وحثّ العلماء العاملين وتعليم رعونات أنفس المتصوفين، للشيخ الحاج مالك سي.

10) تحرير الأقوال في تاريخ السّنغال، لأحمد التجاني الهادي تر الفاسي السنغالي.

11) خطبة الشيخ الحاج مالك.

12) همزيّة الشيخ الحاج مالك سي في نصيحة أبناء الزمان.